

المرأة في الشعر الإسلامي الزهراء أنموذجاً

كانت المرأة منذ البدايات محوراً من المحاور الرئيسة في الأدب العربي، بمختلف أجناسه سيما الشعر، ويتجلى اسم المرأة في الشعر العربي بصفاتها كائناً حاضراً في واجدان الشاعر منذ العصر الجاهلي إلى العصر الحديث، وقد تنوع حضورها بتنوع المواضيع التي يصورها الشاعر في قصيدته، فتارة تأتي في صورة تقديرية، وصورة ماجنة أو مبتذلة تارة أخرى، وذلك بحسب السياق الذي وضعت فيه، كما تعددت صورتها بما تربطه من علاقة معها، مثل: الأم، والزوجة، والحبوبة، وغيرها من الصور الرمزية، لأن المرأة جزءٌ من نسيج المجتمع، ومكون من مكونات الحياة، لما لها من أدوار أهمها الأمومة، والأم هي المدرسة الأولى في النظام الأسري، ناهيك عن المسؤوليات الأخرى التي تساند فيها الرجل، مع تغير المهام الأخرى لكل عصر، وإذا استقرأنا الشعر الجاهلي نجد أن المرأة رُسمت في صورة وصفية واحدة مدارها الجمال - في غالبته - إلا من النزر القليل جداً، مع اختلاف الوصف من شاعرٍ إلى آخر نتيجة اختلاف الرؤية، والموقف، وهذه الصورة التقليدية والسائدة اختلفت في العصر الحديث، باختلاف الظروف السياسية، والتحول الاجتماعي، والثقافية.

ولم تزل المرأة حاضرةً في الشعر الإسلامي سيما في الأسلوب الطللي القديم، فنجد بعض النصوص الشعرية تبدأ بها، كقول كعب بن زهير بن أبي سلمى، حينما أتى الرسول صلى الله عليه وآله معتذراً، قال: بانت سعادٌ فقلبي اليوم متبولٌ متيِّمٌ إثرها لم يُفدَ مكبولٌ

والملاحظ في هذا العصر اختفاء حضور المرأة في الشعر بالصورة التي كانت عليها فيما سبق، أو تضاعف شكل الغزل، كون الإسلام هذب من العلاقة مع المرأة، وأضفى عليها لوناً من الفضيلة والعفاف، فلم تتناول في النصوص بالوصف المادي بل اكتفى الشاعر في الاستهلال بها على الطريقة القديمة، كما اكتفى بوصف مشاعره تجاهها دون الخوض في التفاصيل الحسية، إلا أنه سرعان ما عاد حضورها في العصر الأموي والعباسي، وكان الجسد من الدوافع التي أثرت في استمالة الشاعر لها والافتتان بها إلى حد التوغل في تفاصيلها، والتغني بها، وحينما تطورت الثقافة في العصر العباسي تطور معها توظيف المرأة في الشعر فأصبح كل شاعرٍ يعبرُ عنها بحسب مواقفه المتنوعة، وتغيرت صورتها أيضاً بتغير العصر، ففي العصر الحديث اختلف حضورها - كما ذكرنا - عما كانت عليه قديماً، نتيجة تلاقي الثقافات، والقضايا المتعددة المثارة حولها، مثل: قضية الحجاب، والتعليم، والعمل، وغيرها من قضايا وقيم إنسانية، فتوسع الشاعر في تناول المرأة، وتعددت صورتها في القصائد، مثل: الوطن، والمناضلة، إضافة إلى

وإذا عدنا إلى العصر الإسلامي نجد أن الإسلام ميّز المرأة، وأكرمها، ورفع من شأنها، ودافع عنها، لما تلقت من اضطهاد في الجاهلية، فكانت المؤودة، والممنوعة من الإرث، وغيرها من مظاهر الحقوق المسلوقة، إلا أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم جعلهن شقائق الرجال، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: "ما أكرم النساء إلا كريم، وما أهانهن إلا لئيم"، فقد دعا إلى محبتها، ومراعاتها، لأهميتها في الحياة، مما أثر على توظيف الشاعر العربي للمرأة في قصائده، فأبرز تدينها وعفتها وأخلاقها، وما إلى ذلك من السمات الحميدة المرتبطة بمعاني الوفاء، والألفة، فسمت عن الابتذال، وأصبحت تحكمها القيم الدينية والأخلاقية والإنسانية، سيما في الارتباط بها كما ذكرنا علاقة الشاعر بأمه، وزوجته، وأخته، وابنته، وغيرها من العلاقات السامية بما يتفق والقيم الإنسانية والإسلامية، الأمر الذي رسم معاناتها، وعالج قضاياها، والمصادر في هذا المضمار كثيرة، فقد اتسمت القصائد بالمرأة إلا أننا اخترنا السيدة الزهراء عليها السلام أنموذجاً، في استجلاء مكانة المرأة في الشعر الإسلامي، لما امتازت به عليها السلام من صفاتٍ تعبرُ عن صورة المرأة المثالية من عملٍ، وتضحيةٍ، وعفةٍ، وصبرٍ، ومعاملةٍ حسنى، وغيرها من الصفات التي ينبغي أن تتقلد بها المرأة، وتتبوأ مكانة رفيعة على المستوى الإنساني والحضاري، ومن الواجب أن نخصص هذه الورقة في تبیین مكانة الزهراء عليها السلام في الشعر إيماناً بها، واستكشافاً لزهدها، ولما تمثلت به من هوية فكرية للمرأة المسلمة.

أولاً: الزهراء في الشعر المنسوب إليها:

ثمة نصوص نُسبت إلى الزهراء عليها السلام، عبرت عن هويتها، ومنطقها، وأدبها، وثقافتها، وهذا دليل على أن صوت المرأة الإسلامية حاضرٌ في الشعر، كما أنه دلالة على أن حضور الزهراء شعرياً ما هو إلا لإيصال رسالتها، والشعر هو الوسيلة القوية، والمؤثرة في النفس البشرية، مثلما تميزت في النثر من خطابة، وأقوال مأثورة.

الزهراء والصبر:

تقول في رثاء أبيها صلى الله عليه وآله وسلم:

قلّ صبري وبان عني عزائي بعد فقدي لخاتم الأنبياء

عبدت في هذا النص عن المأساة التي واجهتها وأحاطت بها بعد فقد أبيها، فاستحثت عينها بالبكاء، وبينت في مخاطبتها له أن كل ما يحيط بها في الحياة عبر عن حزنه، فافتقده الإسلام، والمحراب، والقرآن، والمنبر، والجبال، والطيور، وكل شيء يرتبط بهذا الوجود، وهذا يبرز حالتها الشعورية، وعلاقتها بالأب، وهذه رسالة تنم عن عظم الأب في حياة المرأة، وتقول أيضًا في مقام آخر:

إنَّ قلبًا عليكَ بألفِ صبرًا أو عزاءً فإنه لجليدٌ

ومما يدل على العلاقة الروحية بين المرأة وأبيها قولها:

إذا اشتدَّ شوقي زُرتُ قبرَكَ باكيًا أنوحُ وأشكو لا أراكَ مجاوبي

فيا ساكنَ الصحراءِ علمتني البكا وذكرُك أنساني جميعَ المصائبِ

فإن كنتَ عني في الترابِ مغيَّبًا فما كُنتَ عن قلبي الحزينِ بغائبِ

والأبيات التي كتبتها الزهراء عليها السلام في أبيها كثيرة، لا يسع المقام لذكرها، والمهم في هذا الشأن أنها بينت مشاعرها تجاه الأب في تصوير شعري يوصل للمتلقي مكانة الأب لدى المرأة، بثت فيها أشجانها وفلسفتها تجاه الموت، والذكريات، فكانت تشتاق إلى وجوده، وكان لها الجار، وكان الجبل الذي تلوذ به، والجنح الذي تطير به، كما رسمت الحياة الذليلة التي تعيشها المرأة في ظل غياب الأب.

الزهراء والشكوى:

عبرت عن مظلوميتها، وما تعرض له الإسلام من أحداث بعد رحيله، فتقول:

قد كان بعدك أنباءٌ وهنبثةٌ لو كُنتَ شاهدَها لم تَكثُرِ الخُطَابُ

فقد لقينا الذي لم يلقَهِ أحدٌ من البريةِ لا عجمٌ ولا عربٌ

هنا تبث الزهراء شكواها لأبيها بعد رحيله عنها، وكان مدار الشكوى ليس لما تعرضت له، وإنما تشكو

حال الأمة الإسلامية، وهذا يدل على مكانة المرأة، وثقافتها في الإسلام.

الزهاء والحياة الأسرية:

تقول الزهاء عليها السلام لأمير لزوجها أمير المؤمنين عليه السلام، وقد أمرها بإطعام

المساكين:

أمرُك سَمْعُ يا بنَ عمٍ وطاعة ما بيَ من لؤمٍ ولا وِضاعه

وفي ذلك رسالة أرادت الزهاء عليها السلام أن تعبر بها عن هوية المرأة الإسلامية، في توظيف بلاغي يكشف عن أهمية طاعة الزوج، وأن عدم الامتثال لأوامره من الوضاعة سيما في عمل الخير الذي ترجو به الشفاعة.

الزهاء والإيثار:

لما سألتها الإمام علي عليه السلام أن تطعم الأسير، أجابته قائلة:

لم يبقَ مما كانَ غير صاع قد دَبرَرت كَفِّي مع الذراع

شِلايَ وإِـ هـما جِـاع يا ربِّ لا تترُكْهُـما ضِـاع

هنا يتبين لنا أسمى المبادئ الأخلاقية التي تحلت بها الزهاء عليها السلام، وهو الإيثار الذي يعتبر أعلى مرتبة من مراتب العطاء الإنساني، في رسالة توجهها إلى الإنسان مفادها تطهير النفس من الأنانية، والعمل على سعادة الآخرين وتقديمهم على النفس، وتعد هذه من الفضائل التي تميزت بها الزهاء عليها السلام، وقد صرحت بهذا المعنى في مقام آخر قائلة لأمير المؤمنين عليه السلام:

فسوف أعطيه ولا أبالي وأُثرُ إِيّـا على عيالي

الزهاء والأبناء:

أوصت الزهراء عليها السلام ابنها الحسن عليه السلام بأن يقتدي بأبيه، ويتخذه أسوة، حيث تقول:

أشبهه أباك يا حسنٌ واخلعٌ عن الحقِّ الرّسَنُ

وهنا إشارة لموضوع بر الوالدين، والإحسان إليهم.

ويمكن القول إن الشعر المنسوب لفاطمة الزهراء عليها السلام عبر عن هوية المرأة الإسلامية، ودورها في المجتمع، تجاه أبيها، وزوجها، وأبنائها، وغيرها من المعاني التي أبرزت مكانتها وفضيلتها.

ثانيًا: الزهراء في الشعر العربي:

يتجلى اسم الزهراء عليها السلام في الشعر باعتبارها الهوية الإنسانية للمرأة المسلمة، حملت في الشعر روحَ المرأة بشكل عام، والمرأة المسلمة بشكل خاص، وقد تغير تناول الشعراء صورة المرأة في العصر الحديث، إلا أن الزهراء عليها السلام كانت النموذج الأمثل لصورة المرأة السامية في الشعر، لما حملته من قداسة دينية، وصفات نبيلة، كفل لها حق الكرامة، فقد كانت القدوة التي ميز الدين الإسلامي المرأة، وبنى شخصيتها، وهويتها، لذا عبر الشعراء عن روحها، وفضيلتها، وسموها، وتضحيتها، وعفاها، وإيثارها، وجرى ذكر الزهراء عليها السلام على لسان الشعراء منذ القرن الأول الهجري إلى القرن الرابع عشر، في العديد من المناسبات ذكرى ميلادها، ووفاتها، وتزويجها، وذلك لأهميتها ومكانتها في الإسلام.

الزهراء والعفة:

ففي القرن الأول الهجري مدح حسان بن ثابت الزهراء عليها السلام قائلاً:

وإنّ مريمٌ أحصنت فرجَها وجاءت بعيسى كبدر الدجى

فقد أحصنت فاطمٌ بعدها وجاءت بسبطي نبيّ الهدى

وفي هذا المعنى يقول أبو الحسن البوسنجي -من شعراء القرن السادس- في استشراف المستقبل

حينما تجوز السيدة عليها السلام على الصراط:

ها تيك فاطمةُ سليلةُ أحمدٍ تهوى تجوز على الصراط فنكسوا

وقال أيضًا خطيب منبج:

ألا إنَّ البتولَ تجوزُ فيكم فغضُّوا من مهابتها العيون

الزهراء خير نساء البشر:

قالت حفصة بنت عمر عند تزويج الزهراء عليها السلام:

فاطمةُ خير نساء البشر ومن لها وجهٌ كوجه القمر

كما ورد هذا المعنى، وفي المناسبة ذاتها أيضًا عند أم سلمة إذ تقول:

سرن مع خير نساء الورى تُفدى بعمّاتٍ وخالاتٍ

يا بنت مَن فضّلهُ ذو العلى بالوحي منه والرّسالات

وقد ذكر فضائلها الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في مواطن عديدة، في رثائها، ووصاياها بإطعام الفقراء والمساكين، وفي مرضه، وفي الحروب.

وقد وصف ديك الجن -وهو من شعراء القرن الثاني- قبرَ الزهراء قائلاً:

يا قبرَ فاطمةَ الذي ما مثلهُ قبرُ بطيبةٍ طابَ فيه مبيتا

إذ فيكَ حلت زهرة الدنيا التي بحلى محاسن وجهها حُليتا

وهذا الوصف الروحاني يبين مدى رحابة المكان التي دفنت فيه فاطمة الزهراء عليها السلام، إذ يجد

سكينةً وراحة للنفس، ويستشعر ذلك النور في وجوده بأرض طيبة.

وقد ردَّ الحسين بن الحجاج -وهو من شعراء القرن الرابع الهجري- على مروان بن أبي حفصة قائلاً:

قد كان قولك في الزهراء فاطمة قول امرئ لهج بالذَّصِّ مفتون.

عَيَّرَتْهَا بالرَّحَى والحبَّ تطحنه لا زال زادك حبًّا غير مطحون.

وقُلْتُ أن رسول الله زوَّجها مسكينةً بنتَ مسكينٍ لمسكين.

ستُّ النساءِ غدا في الحشر يخدمها أهلُ الجنانِ بحورِ الحرِّ والعَيْنِ.

وفي ذلك يقول جاسم الصحيح:

يا ترى كنتِ تديرين الرحى أم تديرين بيميناك الحياة°

هل غزلتِ الصوفَ في مغزله أم غزلتِ الحب بين الكائنات°

وهنا نرى المزج بين العمل في صورته المادية، والروحية، وتقديم العطاء بالمحبة، وهذه إحدى الرسائل التي تعنى بأهمية عمل المرأة، وإدارتها لشؤون الأسرة، وما تقدمه من خدمة مغلقة بالمودة، والكثير من الشعراء ذكر الرحى في قصائده.

الزهراء حاملة لصفة الأمومة:

وصف الشيخ رجب البرسي -وهو من شعراء القرن الثامن الهجري- الزهراء عليها السلام بالأم، في قوله:

والأمُّ فاطمةُ البتولُ وبضعةُ الهادي الرسولِ لها المهيمُنُ مانحُ

حوريةٌ إنسيةٌ لجلالها وجمالها الوحي المنزَّلُ شارحٌ

وقد كانت الزهراء عليها السلام تُكنى بأمِّـٍ أبيها، ورد في هذا الأمر الكثير من الروايات، ولما للزهراء عليها السلام من صفاتٍ جليَّةٍ في مراعاتها للرسول صلى الله عليه وآله وسلم، فكانت له بمنزلة الأم والأب، وتميزت بالأفضلية من بين نساء قومها، وفي هذا المعنى يقول جاسم الصحيح:

كنتِ أمَّـَ لاهُمُّ واحدةٌ وتوزَّعتِ علينا أمَّهاتٌ

وهنا يكشف الشاعر الأثر الرسالي العظيم الذي يُستمد من حياة الزهراء عليها السلام، سيما في رعاية الأب، فجسدت أسمى معاني البر، والتقوى.

الزهراء والدار:

الكثير من الشعراء وصفوا دار فاطمة ونجد الشيخ عبداً الوائلي الأحسائي -وهو من شعراء القرن الثالث عشر- يقول:

تلك دارٌ عزَّت لدى الله شأنًا وبتنزيلٍ وحيه قد حباها

تلك دارٌ نشأ بها أصل طوبى والبرايا تعيشُ في أفيها

تلك دارٌ حوت نفوسًا إذا ما نُميت للنبي كان انماها

ويقول جاسم الصحيح في هذا المعنى:

أوقفَتْني دارك العظمى على طيفها وسط زُقاقِ الذكرياتِ

لم تكن داراً كما نعرفها إنما عاصمةٌ للمعجزاتِ

كفَّ طه نقشةً في بابها وخُطاهُ زينةً في العتباتِ

و عليّ في مداها خافقٌ مُرهفٌ حدّ الندى والنسمات°

حدثينا عن لياليك بها ودعينا من أحاديث الرواة°

وهنا إشارة إلى أن هذه الدار تحمل من السمات الحسنة أكثر مما نقله الرواة.

وقال المحقق الأصفهاني في وصف الباب:

وبابُها بابُ نبي الرحمة وبابُ أبوابِ نِجاةِ الأمة

بل بابُها بابُ العليِّ الأعلى فثم وجهه الذي قد تجلّى على

والباب له فلسفة خاصة، باب النجاة، باب العلم، باب القداسة، باب السموات، والكثير من المعاني، والدلالات التي يحملها الباب في نصوص الشعراء.

الزهراء والولاء والانتماء:

ذكرت السيدة عليها السلام في نصوص الشعراء تعبيراً عن انتمائهم ولائهم لها، يقول الشيخ أحمد الوائلي:

كيف يدنو إلى حشاي الداءُ وبقلبي المديقةُ الزهراءُ

الزهراء معلمة ومربية:

يقول جاسم الصحيح في تربية الزهراء عليها السلام لمن حولها:

كل من حولك قد ربّيتهم ثم ربّوا بك أجيالاً تُقاة°

تمثلت هذه الأبيات في صبر زينب، وإباء الحسين، وسماحة الحسن عليهم السلام، أي أن التربية انعكست على الأبناء، ومن حولها ممن تأثر بها عليها السلام.

تظل الزهراء عليها السلام من أسمى ما كتب فيها عن المرأة في الشعر العربي، وقد ورد ذكرها في قصائد مدح الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، والإمام علي عليه السلام، والإمامين الحسن والحسين عليهما السلام، لارتباطها الوثيق بهم، وما لها من مآثر في حياتهم، ناهيك عن القصائد التي اتخذتها موضوعاً قائماً بذاته، وقد أبرز الشعر مكانة المرأة المتمثلة في الزهراء عليها السلام في أبعاده الوجدانية، ودلالاته المتعددة.